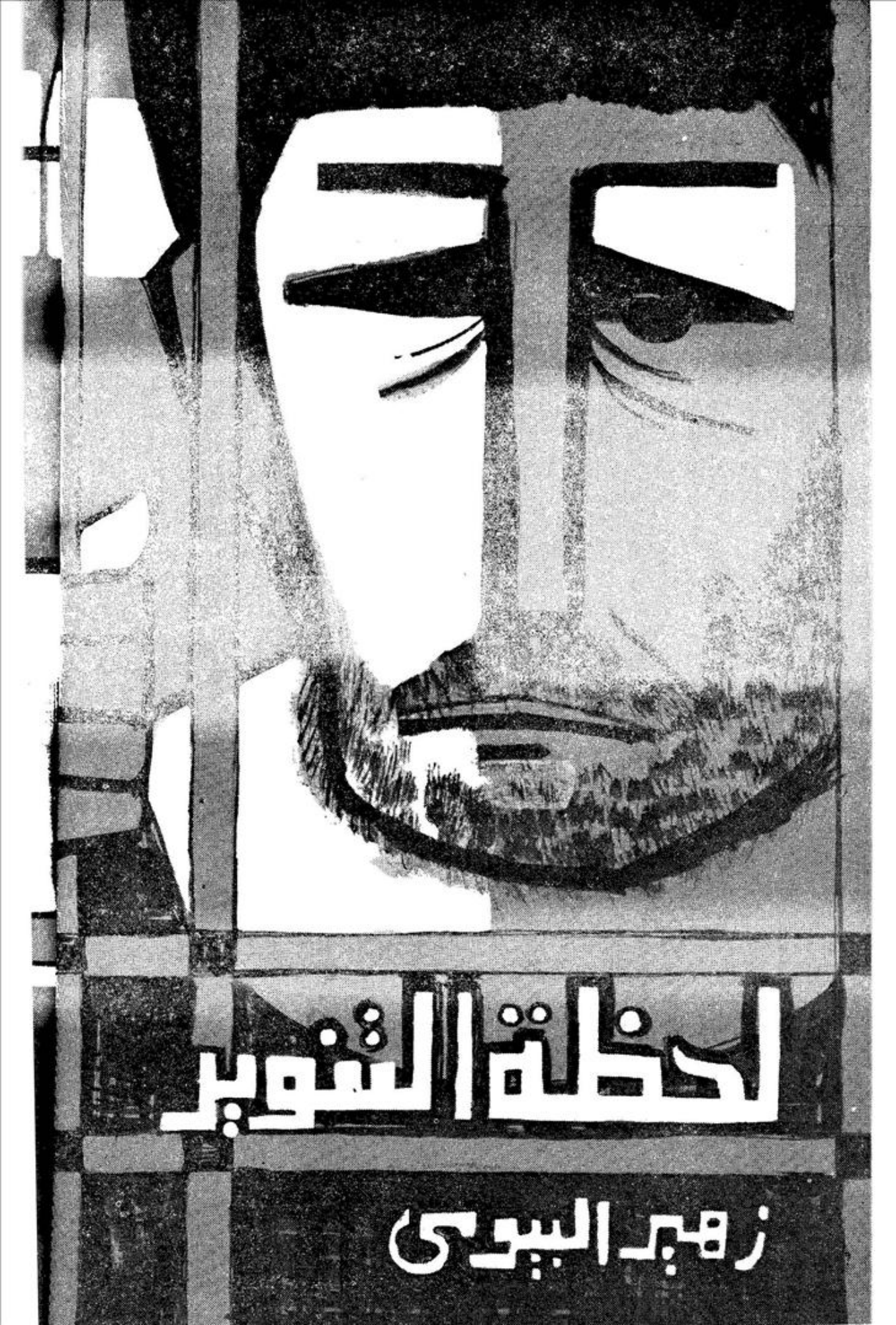
لحظة الشعور
زهير البيدي

ماعاد يذكر متى كان عهده بالسجن أول مرة ولا متى ألهبت الذكرى وجدانه بهذه الأمور التى لم يألفها منـــذ وقت بعيد ٠٠ هاهو ذا فى السجن مرة أخرى، وسيخرج منه ليكون على أعتابه من جديد ٠٠٠ وهـذا الصول الذى استقبله فى آخر مرة دخل فيها السجن كان أول مرة رآه فيها لا يحمل الا شريطا واحدا ٠ ولابد أنه قد أمضى وقتا طويلا حتى حصل على بقية الأشرطة ، وما بال ذلك القاضى الذى حكم فى آخر قضية له قد تغيرت سحنته هو الآخر ، كان أول مرة رآه فيها شابا حديث التخرج يشـغل وظيفة وكيل النائب العام ، فـلابد أنه

أيضا قد مضى وقتا طويلا حتى وصل الى هـذه المكانة ·· ولابد أنه قـد جـاب البلاد طولا وعرضا من الوجه القبلى الى الوجه البحـرى وبالعكس ، وانتهى به المقام ـ قاضيا تراكمت الهموم فى زحفها مع السنين على وجهه ، ويتمتم من خلف الظلمات :

ـ لا بأس ··· لا بأس كلهم حصلوا على ترقيات وأنا الآخر قد تدرجت فى المناصب على مر السنين ·· لص فرئيس عصابة ، ثم شيخ منصر ، وسأخرج من السـجن لأصبح مدير مناصر القاهرة كلها ·

الدنيا كلها تدور من حوله بينما هو يتردى فى ظلمات السـجون حتى خبر معظمها اذ لا يوشك أن يخرج من السجن حتى يشده الحنين الى عتمته بعـد أن يتعذر عليه العيش النظيف ، فما من مرة خرج من السجن الا وكانت الدنيا أشد اظلاما منها بداخله ·· ولكن ها هو ذا الآن يشع النور من جوانيته فى أول مرة يدخل فيها مكتبة السجن التى شيدت فى العهـد الجديد ·· كتب مسلية ، رائحتها تفتح فى النفس أبوابا تراكم عليها التراب ، وعلا الصدأ مزلاجهـا الذى أغلق منذ طرق باب السجن أول مرة وهجر الجامعة ، هجرها بسـبب فتاة ·· يا له من أحمق ، ولكنها قصة يجدر كتابتها على أية حال ·

ويسـحب كتابا لا يدرى ان كانت الحاجة قد أتت به أم الصدفة ·· «لعلها الذكرى ·· كنت تلميذا نجيبا ذات يوم لذلك الرجل الذى ظل يتاجر فى البداية والنهاية منذ ربع قرن أو يزيد » ·

ويقرأ بلسان يقطر مرارة على العمر الذى ضاع « القصة لابد لها من بداية ·· وقد كانت منذ وقت بعيد ، معركة فى وسط الجامعة ·· بسبب فتاة ·· كان عدد الفتيات حينذاك لا يزيد على أصابع اليد ··· ولعل ذلك كان سبب المعركة وليس جمال هذه الفتاة ، كانت جميلة فى أعيننا برغم دمامتها التى لم نكتشفها الا حين انعكست صورتها على صفحة الدماء السائلة ، وبرأها التحقيق من الذنب ·· لم تحثنا على التقـاتل ، ولم تكن تدرى بالواقعـة ، بل لم تكن تعرف منا الا وجوهنا التى تعودت أن تحوم حولها ، فقد كان من غير المألوف أن تحدث الطالبات المعدودات زملاءهن ، وانتهى الأمر بدخولى السجن مع الجناة ·· ربما حصلت على الليسانس منذ زمن ولم تعد تذكر من أمرنا شيئا ، وربما كانت تبيت الليلة فى أحضان زوجهـا وترنو اليه بعينى قطة تلتمس الدفء فى شهر أمشير « أحبك ·· أعبدك » كلمات كان من الممكن أن تقولها لأحـد الذين دخلوا السجن أو ماتوا بسببها لو أن أحدا منهم عكف على الدراسة حتى أتمها وتقدم لخطبتها ، وربما صرف النظر عنها الى أخرى ، فلابد أن هناك كثيرات يفقنها جمالا ·· ولكنه النصيب ·

ويقرأ مرة أخرى : « القصة لابد لها من بداية ·· والبداية لا يصعب كتابتها ·· ولابد أن تبدأ من موقف ·· وها أنا ذا قد عشت الموقف ألف مرة ، ولابد أن يتوسطها الصراع والعقدة ·· وهاهى نفسى بها من الصراع والعقـد ما يكفى ألف قصة ··· ولابد أن تنتهى القصة بلحظة التنوير لتكمل الحبكة القصصية ·· لا هذا الناقد يحبكها أكثر من اللازم

.. سأكتب حتى أصل الى لحظة التنوير وعندها يحلها الكريم .

دخلت السجن فى عهد لم يكن يفرق بين مجرم جاهل وآخر مثقف .. لا لم أكن مجرما .. لأحذف هـذه الكلمة ، ولكن لابأس فلأتركها مادمت قدأصبحت هكذا فيما بعد .. أدخلونى فى زنزانة واحدة مع اللصوص والقتلة والمحنكين الذين تعهـدونى بالتعليم والصقل حتى أصبحت مثلهم .. نعم جعلونى مجرما .. لأحذف هذه العبارة الأخيرة أيضـا فانها اسم لفيلم ، وربما رفع صاحب الفيلم قضية ضدى لأنى اقتبست الاسم، ولكن لا بأس .. فلأترك هـذم العبارة كما هى فان ذلك يثير ضجة حول قصتى

وضحك بغتة وهو يقول لنفسـه : « ومن قال ان قصتى هذه سترى النور»

وعاد يكتب مرة أخرى وكأنما قد عقد العزم على أن ترى قصته النور .

فى السجن يستوى المثقف والجاهل، وكم تمنيت حينذاك أن يستوى الرجل والمرأة حتى نسبق بذلك العالم الخارجى .. أو لعلنى تمنيت ذلك لغـرض فى نفس يعقـوب . هكذا يجب أن أكون صريحا فى قصتى الى أقصى حـدود الصراحة .. كان عدد السجينات قليلا جدا كعدد فتيات الجامعـة حين التحقت بها .. سألنى بعض المساجين عن سبب دخولى الى السجن ، وضحكوا كثيرا حين علموا بالقصـة ، وتوالت التعليقـات الطريفة واللاذعة :

ـ بسبب تلميذة ؟!

ـ حضرته دون جوان ..

ـ الولد حلو ، وشعره مسبسب .

ـ يا خسارة ، والله ينفعنا فى سرقة الكاديلاك .

ـ حسبناك سرويسا محترما .

وسأل عن معنى كلمة « سرويس » فصاح أحدهم :

ـ قل له يا كوتو .

ـ سرويس .. كلمة أفرنجية معناها لص .. هات ثمن المعلومات القيمة .. سيجارة .

وما أن أخرج العلبة من جيبه حتى عادت خالية ، ولم يعرف قيمتها الا حين أراد شراء أخرى ، ثمنها ثلاثة أضعاف ثمنها الحقيقى ، ولكنه اندمج معهم .. فهكذا كانت تقضى ظـروف الحياة فى هذا المكان . وعرف قصـة كل منهم ، وتاريخه فى الاجرام ، وكل يحـاول أن ينسب الى نفسه ما ظنه أمجادا ليست له ، ويستمر هو فى كتابة قصته :

« كان مقدرا أن أمضى عشر سنوات فى السجن ، ولكن شاء القدر أن يغير العهد بعهد جديد فخرجت بعد نصف المدة فى الاعفاءات الثورية ، وكان حسن سيرى وسلوكى شفيعين لى فى ذلك ، ولكننى خرجت والقيود لازالت تكبلنى .. صحيفة السوابق ، يا لهامن كابوس لازال يؤرقنى حتى الآن ، خرجت لأجد كل أبواب الحياة قد أغلقت دونى تماما، العمل ... لا عمل .

لا أريد أن أطيل عليكم ، قابلنى أحد الزملاء الذين كانوا معى فى السـجن صدفة ، وذكرنى بأنى حلو ، وشعرى مسبسـب ، وبأنى خليـق بركـوب الكاديلاك ، وما هى الا أسابيع قليـلة

حتى أصبحت اخصائيا تعطلت لديه كل الغرائز ، الا غريزة الفك والتركيب ، أركب الكاديلاك لأدخل الى السجن ، ثم أخرج منه سائرا على قدمى فأركب أخرى وأعود اليه ·· والآن اما أن أتعود السير على أقدامى أو أعود الى السجن مرة أخرى فور خروجى منه ·

هذه هى القصة حتى الآن ·· ولابد أن أعثر على النهاية ·· لحظة التنوير ، الخروج من السجن لا يمكن أن يكون هو النهاية ، فكم من مرة خرجت من السجن دون أن أرى النور بسبب الورقة المشئومة ، صحيفة السوابق ·

ويعصر ذهنه محاولا أن يختم القصة، دون جدوى ، فيقرر تركها كما هى ، ويقول لنفسه : « هكذا تنتهى بعض القصص دون نهاية محدودة ·· والمعنى فى بطن الشاعر ·· أنا كاتب طليعى »

هكذا قرر أن يقول لزميله الذى أصبح محررا بمجلة « الصباح » ، والذى عقد العزم على مقابلته فور خروجه من السجن ·· لديه البدلة الأنيقة لزوم ركوب الكاديلاك ، قرر أن يرتديها فى هذه الزيارة ، ويمتطى صهوة خياله الذى قفز أسوار السجن ليذهب به الى صديقه :

ـ الاستاذ سيد البلطى ·· ان كان موجودا ، قل له صديق قديم ·

وضغط على أنيابه خشية أن تذهب رهبة المكان بوقاره الذى ينم عنه مظهره ولا يدرى لماذا خطر له أن الساعى سيعود ليخبره بأن السيد البلطى غير موجود ، أو أن الساعى سيعود ليسأله عن اسمه ثم يذهب ليعود مرة أخرى

فيخبره بأن سيد البلطى غير موجود . ويقطع عليه خواطره عودة الساعى قائلا له :

ـ تفضل .. الاستاذ فى اجتماع مع رئيس التحرير ، ولكن بوسعك انتظاره فى مكتبه لبضع دقائق .

وفى مكتب صديقه وجد هناك صحفيا آخر ، حياه برأسه ، ثم جلس صامتا وقد وضع ساقا على أخرى محاولا أن يبدو بمظهر الواثق من نفسه ، وما هى الا لحظات حتى وصل المقصود بالزيارة، فهب واقفا ليرحب به وكأنه هو المضيف:

ـ أهلا سيد .

ـ عباس ! .. أهلا .. منى خرجت؟

ـ اليوم فقط .. خرجت فى الصباح .. وقصدتك فى المساء .

ونظر سيد البلطى الى زميله الصحفى ثم قال :

ـ ألا زلت على نفس مبادئك ياعباس؟

ـ أى مبادىء ؟

قالها ثم لم يلبث أن فطن الى أن سيد يريد أن يوهم زميله الصحفى بأنه دخل السجن لاسباب سياسية وليس لأسباب اجرامية ، فبلع ريقه فى غيظ ثم قال فى نبرة كلها ثقة رغم ما بدا عليه من ضيق ألحقه به خجل سيد منه :

ـ آه .. لا .. قررت أن أبدأ حياتى الجديدة بعيدا عن السياسة ، ولهذا قصدتك أول ما خرجت .

ـ أنا فى خدمتك .

ـ لدى قصة أريد أن أنشرها ..

ـ اذن فقد أصبحت مؤلفا ؟

ـ ولم لا ؟

ـ لا ... لا شىء ، ولكن كم قصة كتبت حتى الآن ؟

ـ قصة واحدة .. عصارة التجربة .

ـ واحدة فقط ؟

ـ نعم .. وأول الغيث قطرة .

ـ أرنى اياها ..

وناوله القصة ، وراح يحملق فى الفضاء ريثما ينتهى سيد من قراءتها ، وجاد عليه الصحفى الجالس فى الطرف الآخر ببسمة تقول له : « اذن فأنت مناضل » ، وكز هو على أنيابه وكأنما يجيبه قائلا : « مناضل .. نعم ، ولكن ليس كما تفهم ، أنا مناضل فى سبيل لقمة العيش » .

واستيقظ على صوت صديقه سيد وهو يضحك ضحكة بلهاء محاولا أن يخفف من وقع كلامه :

ـ القصة لطيفة ، وصادقة ، ولكن أين النهاية ؟ .. لحظة التنوير ؟

ـ هذه ليست قصة تقليدية .. ألم تقرأ القصص الاجنبية التى تنتهى دون نهاية ؟

ظل سيد البلطى يجاريه حتى نهاية الجلسة ثم هم واقفا وقال له :

ـ اترك لى القصة ، وسأتولى أمرها بنفسى .

سر عباس بذلك ، وترك القصة له ، وعاد الى نفسه فى مكتبة السن بعد أن خيل اليه أن صديقه سيد قد أسقط شيئا ما فى جيبه حينما كان معه ... لعلها بعض النقود ، ولكنه وضع يده فى جيبه ليجده خاليا ، فعبس قليلا لأنه لم يجن شيئا من زيارته لسيد ، ومع ذلك لم يندم على ترك القصة له فكور الأوراق التى أمامه وألقى بها فى ركن الزنزانة .